علوم البلاغة فى الجامعة

للأســـتاذ علي العمارى

يحلو لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسى يعرض لكثيرين فى كل عصر ولا سيما من يغرمون بالشهرة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

وتجديد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو إلا أن تعنّ فكرة فى رأس أحدهم حتى يطير بها ، ويكاد يجن فرحاً وغروراً ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلا لأدرك أنها خيال له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور ، وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجدد فيها . ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وأنهم لم يفهموا ، ولو أمعن الفهم ، ولو وسّع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القوم مايرد نزغته ، ويطفئ شهوته .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شديد الحاجة إلى من يُجد أخلاقها ، ولكنها لاتظفر إلا بالدعاوى المريضة الكاذبة ، ونستطيع أن نقول إن التجديد فيها وقف بعد الأمام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وإن مابذل بعد ذلك ليس إلا محاولات بسيطة إن لمست بعض النواحى فى هذا الفن فأنها لم تخلص إلى اللباب ، وإن فى (دفاع عن البلاغة) للأستاذ الزيات ، وفى (مذكرات فى علوم البلاغة) لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى فى القرآن) للأستاذ سيد قطب أقول إن فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخير ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى ، فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الأشتات ، ويؤلف التفرقات ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد إلى الورق الصقيل ، والطبع الأنيق ، ليقول إنه فى البلاغة جدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ليقال إنهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدموا متبصرين فاهمين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضربون معاولهم وهم مغمضو الجفون .

بين يدى الآن مذكرات فى علم المعانى أملاها الأستاذ الشيخ (أمين الخولى) على طلبته فى الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ فى هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام ! ! .

وإنما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، وما دامت فنا فهى تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها إلى الأكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة . ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى ، ولكن ما ذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك ، ولنقتصر الآن على عرضه لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ — (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) يشرحها الأستاذ هكذا « وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده يطلع إيه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد (سماة بوسته) هو مرسال زى الراسيل اللى قبله ... ييجى ويروح ويموت وينقتل ... الخ فإذا حصل شىء من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو يعنفهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد . ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... الخ ... انتهى بنصه وفصه ! !

صدقنى — أيها القارئ — أن هذه عباراته . فهل هذا هو التجديد ؟ هذا كلام يمكن أن تتصور صدوره من واعظ يلقى عظته على جماعة من (البرابرة) فيضطر إلى أن ينحدر هذا

الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهذيان !

ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذلقة ، وما المانع من أن يلقى على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم وجميع الرسل ليس إلا « سماة بوسته » ؟ وهل فى ألسنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟ !

٢ — قال الله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير » . وقال الشيخ نفعنا الله به وبعلمه آمين : « انت مش حتسمع اللى فى القبور . والحقيقة أنه هو مش قدام أموات ، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقول له : إنك حريص قوى على هدايتهم ، والأحسن انك ماتحرصش كتير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف إنه كاد لفرط عنايته بأن يهتدى هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته هى مجرد التبليغ . هو عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووفاؤه لمهمته هو الذى يحمله على الإسراف فى الإلحاح ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه ... انت ماتنتش حاجة أبداً إلا نذير تنذر من ينذر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات ... فالأحسن لك انك تريح نفسك » .

والله ماأدرى ماذا أقول ؟ وإنى لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو به جدير فيستثقل القراء ويستبردون كلامى . ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لاتهموا هذا الأستاذ بتهم أقلها إفساد ذوق التلاميذ .

على أن شرحه بعد ركاكته وتهافته — ليس موافقاً كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وإدراك ذلك سهل ميسور .

٣ — وقال عز وجل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » . ويقول الشيخ : « الحوار فى هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالى محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذى نحن فيه بدليل « فلما توفيتنى » وكأن الله يقول لهم « أنتم بتقولوا عيسى ده إله ، وإنه هو الذى أمركم أنكم تعبدوه ... نجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث إلى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردين دول ... هل أنت قلت لهم ياعيسى إنك إله ؟ قول لهم ؟ قل لهم يا أخى » !

بمثل هذه الأساليب البارعة الفاتنة يلقى مدرس البلاغة فى جامعة فؤاد الأول ، وسيد المجددين كما يدعى ... يلقى دروسه !

ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما فى هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف إن مر على دفاترهم ، فلن يمر على أفكارهم وأذهانهم ...

على العمارى

مدرس البلاغة بمعهد القاهرة

بادر باقتناء نسختك

قبل نفادها

من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا البريد